

## الفصل الثانى

### أحوال بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح الإسلامى

المبحث الأول: عناصر السكان:

- ١- العنصر الآرى.
- ٢- العنصر الصينى.
- ٣- العنصر الإيرانى.
- ٤- العنصر التركى.

المبحث الثانى: الأحوال السياسية:

- ١- بخارى.
- ٢- خوارزم.
- ٣- الصغانيان.
- ٤- الختل.
- ٥- باقى الممالك.

المبحث الثالث: الأحوال الدينية:

- ١- الزرادشتية.
- ٢- البوذية.
- ٣- المانوية.
- ٤- المزدكية.
- ٥- المسيحية.
- ٦- التوحيد.

المبحث الرابع: الأحوال الاقتصادية:

- ١- الزراعة.
- ٢- التجارة.
- ٣- السكة (العملة).

## المبحث الأول: عناصر السكان

ليس المراد من دراسة عناصر السكان في هذا المبحث الناحية الأثرولوجية. ولكن المراد دراسة هجرات شعوب المنطقة من مكان إلى آخر، حتى استقر ببعضهم المقام في بلاد ما وراء النهر. وأول ملاحظة تبدو للباحث هي أن المصادر العربية ربما كانت قليلة، أو إنها ليست غنية بالمعلومات التاريخية فيما يتعلق بسكان المنطقة، حيث لم تصل إلينا كتب معاصرة مثل كتاب الهيثم بن عدى (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م): «نزول العرب بخراسان والسواد»، وكتب المدائني (ت ٢٢٥هـ/ ٨٣٩م) التي اعتنى فيها بالفتوح الإسلامية في خراسان وفارس والهند، وكتاب «أخبار ما وراء النهر من خراسان» لمؤلف مجهول<sup>(١٧٣)</sup> أقول؛ لم تصل إلينا هذه الكتابات إلا عن طريق الطبقة الثانية من المؤرخين أمثال: اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) والبلاذري (ت ٢٩٧هـ/ ٨٩٢م) والطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م). وحتى هذه المؤلفات القيمة تاريخياً للأسف، لم تشر هي الأخرى إلى سكان هذه المنطقة قبل الفتح الإسلامي. ولكنني أتمس لهم العذر في ذلك. فيكفيهم شرفاً رحلتهم في طلب العلم وجمعه وتدوينه، في صبر عجيب، على طول الطريق، وقلة الزاد، وصعوبة السفر.

ولحسن الحظ، فقد قام كوكبة من العلماء المؤرخين المحدثين بدراسة هذا الموضوع دراسة وافية، أعرض لوجهة نظرهم، وأستخلص في النهاية ما يقتضيه البحث، وتطمئن إليه النفس.

أولاً: يرى أستاذى الدكتور/ عبد الشافى محمد عبد اللطيف، أن سكان بلاد ما وراء النهر من العنصر التركي الذى انحدر إليها من الشرق،

(١٧٣) ابن النديم: الفهرست، ص ١٣٢-٤١٨.

منذ القرن السادس الميلادي<sup>(١٧٣)</sup>، وكونوا لهم عدة ممالك مستقلة. ويوافق الأستاذ الدكتور/ حسن أحمد محمود - رحمه الله تعالى - أستاذى فى هذا الرأى<sup>(١٧٤)</sup>. ويبدو أن هذه المدرسة التاريخية قد استندت إلى رأى المؤرخ الروسى بارتولد (ت ١٩٣٠م) الذى يقول: «ومن الآثار التى تهتم صاحب الدراسات التركية، وتهتم المؤرخ - أيضاً - آثار أورخون<sup>(١٧٥)</sup>؛ وهى تخلد أقدم ذكر للسان التركى. وقد اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى أقدم آثار تركية أنشأها الترك أنفسهم عن تاريخهم، فأصحاب هذه الآثار قد سمو أنفسهم لأول مرة فى التاريخ بالترك، وهم قوم قد ظهوروا فى القرن السادس، واستولوا فى زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين إلى إيران وبيزنطة»<sup>(١٧٦)</sup>.

ثانياً: يرى الدكتور شكرى فيصل: أن سكان المنطقة خليط من الأتراك والإيرانيين<sup>(١٧٧)</sup> ويستند إلى رأى المستشرق الإنجليزى «جب» الذى يقول: «ليس سكان حوض النهر (جيحون) وسكان الصغد تركاً فى الأصل، فهم إيرانيون فى طابعهم، يتكلمون لغة إيرانية، ويمارسون أنظمة إيرانية»<sup>(١٧٨)</sup>.

ثالثاً: والرأى عندى، أن بلاد ما وراء النهر كان يسودها خليط من عدة عناصر مختلفة، وهى: العنصر الآرى، والصينى، والإيرانى،

(١٧٣) د. عبد الشافى محمد: العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص ٣٣٧.

(١٧٤) د. حسن أحمد: الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى، ص ١١٣.

(١٧٥) نقش أورخون: نسبة إلى نهر أورخون فى منغوليا. وهذا النقش على ألواح حجرية بارتفاع ٣.٧٥ متراً، وعرض ١.٣ - ١.٥ متراً، وقد كتبت النقوش عليه من اليمين إلى اليسار، ومن أعلى إلى أسفل. وأقطاى أصلان أبا: فنون الترك وعمائرهم، ص ٣.

(١٧٦) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ١٧.

(١٧٧) د. شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، ص ٢٠٨.

(178) Gibb: The Arab Conquests in Central Asia. London, 1923, VOL, II, p3.

والتركي. وأظن أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الإيضاح. ونوضحه فيما يلي:

### (١) العنصر الآرى:

يعد من أقدم عناصر السكان فى المنطقة، وهو مع قلته، وغلبة باقى العناصر عليه، إلا أنه وجد فى مقاطعات وخان، وصغانيان، وبذخشان، أثناء الفتح الإسلامى، يقول بارتولد عن هذه المناطق: «احتفظ سكانها بدمهم الآرى الخالص، وكانوا يدينون بالوثنية حتى القرن العاشر الميلادى»<sup>(١٧٩)</sup>.

### (٢) العنصر الصينى:

أما الصينيون فقد فرضوا سيطرتهم على بخارى فى القرن السابع الميلادى، واتخذوا منها مركزاً ثابتاً لهم، وظلت بها بعض العناصر - وإن كانت بأعداد قليلة - حتى مجىء الفتح الإسلامى يقول أحد المؤرخين المحدثين: «ومما يسترعى الانتباه أن كثيراً من الممالك التركىة فى بلاد ما وراء النهر فى فترة صدر الإسلام كانت واقعة فى دائرة النفوذ الصينى على المستوى السياسى والثقافى»<sup>(١٨٠)</sup> بل إن المؤرخ الفارسى أبو سعيد الكرديزى (ت ٤٤٣هـ / ١٠٥١م) يصنف الترك من جملة الصينيين<sup>(١٨١)</sup>، ويوافق الدكتور سعد زغلول بقوله: «إن كلمة (ترك) صينية الأصل، وإنها كانت حديثة العهد عندما دخل الإسلام فارس»<sup>(١٨٢)</sup>.

(١٧٩) بارتولد: تركستان، ص ١٤٧.

(١٨٠) د. سعد زغلول عبد الحميد: الإسلام والترك فى العصر الإسلامى الوسيط، مقال فى مجلة المختار من عالم الفكر. دراسات إسلامية - وزارة الإعلام، الكويت ١٩٨٤م، ص ١٤٧.

(١٨١) الكرديزى: زين الأخبار، ص ٤٣٣.

(١٨٢) د. سعد زغلول: الإسلام والترك، ص ١٨٢.

### (٣) العنصر الإيراني:

أما إذا انتقلنا إلى العنصر الإيراني، فإننا نجد أن أغلب سكان بلاد ما وراء النهر كانوا من هذا العنصر؛ وكانت الفارسية هي اللغة السائدة في أقاليم فرغانة، وخوارزم، وأشروسنة، والصغد<sup>(١٨٣)</sup> بل إن المستشرق (ماركارت) ترجم كلمة صوغد أو صوغداق (بلاد الصغد) الواردة في النقوش الأثرية على أن معناها: «أقوام أمة فارس»<sup>(١٨٤)</sup>. مع العلم، بأن هذه اللغة ظلت سائدة في هذا الإقليم إبان الحكم الإسلامي حتى زمن الغزو المغولي. ثم حلت محلها اللغة التركية.

ويقول الجغرافي الروسي (خانيكوف): «إن مجال الشعب الإيراني الأول هو في الوديان الخصبة حول نهر زرافشان... وأقدم المستعمرات التي كانت هناك تلك الرقعة من الأرض التي تمتد من أخسيكت حتى بخارى. وهذه الرقعة التي تضم أغلب أراضي بلاد ما وراء النهر الخصبة أغلبها أسماء فارسية قديمة في أصلها»<sup>(١٨٥)</sup>.

مما سبق نستنتج، أن العنصر الإيراني كان أحد العناصر الموجودة بكثرة في بلاد ما وراء النهر إبان الفتح الإسلامي. وظلت اللغة الفارسية هي السائدة في المنطقة حتى الغزو المغولي لها.

### (٤) العنصر التركي:

وهو آخر العناصر الموجودة في بلاد ما وراء النهر ولا يعد استطراداً أن ألقى بعض الضوء عليه، نظراً لدورهم الكبير في هذه المنطقة من الناحية

(١٨٣) دائرة المعارف الإسلامية، ٣م، ج٥، ص٢٩٦.

(١٨٤) بارتولد: تاريخ الترك، ص١٥٨.

(١٨٥) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٤١-٤٣.

السياسية، والدينية، والاقتصادية فالترك شعوب بدوية، لم يكن لها من الحضارة شيء، حيث لم يهتموا بالكتابة؛ ولم تكن لهم لغة معروفة، بل كانوا يكتبون بالسكريدية، أو المغولية، وربما الصينية. إلى جانب ما ابتدعوه من حروف الكتابة الإيغورية<sup>(١٨٦)</sup>. كما لم يعرفوا العلوم، ولم يدونوا التاريخ، بل أخذ عندهم شكل الأساطير والحكايات التي تذكرنا بأيام العرب في الجاهلية. ويرجع أصلهم إلى سكان السهول الشرقية المتاخمة لبلاد الصين. وأطلق عليهم لفظ «هون» Hun والذي يهمننا من قبائل الترك ثلاثة قبائل فقط، وهي:

**الأولى:** قبيلة «اليو - تشي» كما سماها الصينيون، وهذه القبيلة أخذت طريق فرغانة إلى بلاد ما وراء النهر. ومن هناك عبروا نهر جيحون، واستقروا في منطقة بلخ، حيث عرفوا باسم «الطخارية»<sup>(١٨٧)</sup>. هذا الاسم الذي صار علمًا لتلك البلاد، فصارت تعرف باسم «طخارستان». **الثانية:** قبيلة «يه - تاي» كما سماها الصينيون أيضًا - وعرفت عند المؤرخين المسلمين باسم «الهياطلة»<sup>(١٨٨)</sup>. وعند البيزنطيين بـ«المهون البيض». ومنذ القرن الخامس الميلادي انتشرت هذه القبيلة في أقاليم نهر سيحون، وخورزم حتى بحيرة خوارزم، كما عبروا نهر جيحون إلى بلخ وطخارستان، واتخذ ملكهم لقب «إخشنوار»<sup>(١٨٩)</sup> وحاربوا

---

(١٨٦) السيد عبد المؤمن: أضواء على تاريخ توران (تركستان)، ص٧، دائرة المعارف الإسلامية، م١٠، ص١٢٣.

(١٨٧) د. سعد زغلول: الإسلام والترك، ص١٧٧.

(١٨٨) الهياطلة: نسبة إلى هيطل بن عالم بن سام بن نوح، استوطن بلاد ما وراء النهر وعمرها، فسميت باسمه. الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص١١٩، ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٤٩١.

(١٨٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٤١٤.

الساسانيين، وقتلوا ملكهم «فيروز بن يزدجرد»<sup>(١٩٠)</sup> بمدينة مرو سنة ٤٨٤ م. وأمام المقاومة العنيفة من الفرس اضطر الهياطلة إلى الاتجاه نحو الجنوب الشرقي حيث كانت قبيلة الطخارية.

الثالثة: قبيلة «التو- كيو» Tou -Kiove. كما سماها الصينيون، وعرفت عند المؤرخين المسلمين باسم «الترك». ففي بداية القرن السادس الميلادي نجح ملكهم «بومين»<sup>(١٩١)</sup> في الانتصار على القبائل الأخرى، واتخذ لقب «خاقان». ومعناه «ملك الملوك» بعد أن كان يحمل لقب «جابغو» الذي ورد عند المؤرخين المسلمين «يبغو»<sup>(١٩٢)</sup>.

لم تلبث دولة الترك بعد وفاة «بومين» أن انقسمت إلى مملكتين: شرقية، بقيادة «بومين قاغان» المعروف باسم «موهان» الذي توفي سنة ٥٥٢م، ونجح الصينيون في القضاء على مملكته حوالي عام ٦٢٠م<sup>(١٩٣)</sup> وأما المملكة الغربية فكانت بقيادة «إستمي يابغو» المعروف باسم «استامي» الذي نجح في تحطيم الهياطلة حوالي سنة ٥٦٥م، وبسط سيطرته على إقليم الصغد حتى منطقة بلخ<sup>(١٩٤)</sup>. وبذلك رحل الهياطلة نهائياً عن بلاد ما وراء النهر، واستقروا في سهول المجر. وكان على هؤلاء الأتراك الغربيين أن يواجهوا الفتح الإسلامي.

يفهم مما سبق أن إقليم بلاد ما وراء النهر كان موطن الأتراك الغربيين فقط، أما موطن الأتراك الشرقيين فهو يتجاوز إقليم ما وراء النهر صوب

---

(١٩٠) ابن الأثير: الكامل، ج١، ص ٣١٣.

(١٩١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٦٠. ودائرة المعارف الإسلامية،

١٦م، ج١٢٦، ص ٣٦٧.

(١٩٢) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ١٢٠، ابن فضلان: الرحلة إلى بلاد الترك، ص ١٠١.

(١٩٣) د. سعد زغلول: الإسلام والترك، ص ١٢٨.

(١٩٤) بارتولد: تركستان، ص ٣٠٥.

الشمال حتى السهول الروسية، وربما امتد حتى حدود الصين<sup>(١٩٥)</sup>. هذا؛ ولا تقتصر قبائل الترك على ما ذُكرتُ بل هناك قبائل كثيرة أخرى ومنها: قبائل بجنك، بجا، بغراج، التغرعز، جكل، خرخيز، الخيتان، الخرلخ، الخزر، خطلخ، الغز<sup>(١٩٦)</sup>.  
وصفوة القول: أنه من الثابت المؤكد أن الترك كانوا في القرنين السادس والسابع الميلاديين، يسودون مواطن كثيرة ببلاد ما وراء النهر، وإن وجدت بعض العناصر الأخرى، مثل: العنصر الآرى، والصيني والإيراني، وإن كانت قليلة، إلا إنها لا يمكن إغفالها في البحث.



---

(١٩٥) د. حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص ١١١.  
(١٩٦) لمزيد من التفاصيل انظر أبي دلف (ت ٣٩٠هـ) رحلة أبي دلف إلى بلاد الترك والصين والهند، ص ٤١-٤٥، ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ٣١، القزويني: آثار البلاد، ص ٥٨٠-٥٨٩.

## المبحث الثاني: الأحوال السياسية

سبقت الإشارة - فى الفصل السابق- إلى أن بلاد ما وراء النهر لم تعرف قيام حكومة مركزية، بل ظهرت فيها عدة ممالك مستقلة عن بعضها البعض، بل ومتحاربة باستمرار<sup>(١٩٧)</sup>. ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الإنجليزى جب فقال: كانت الولايات فى هذه المنطقة تعترف بـ«الخان» سيداً لها وتدفع له الجزية. وكانت إمارة الصغد مقسمة إلى ولايات صغيرة مستقلة تقوم بينها معاهدات مرنة؛ وقد ارتبطت الولايات برباط سيادة أسرة معينة فيها على جميع الأسرات الأخرى - ولكنه لم يكن رباطاً وثيقاً. وكان إلى جانب هؤلاء الأمراء، سادة محليون لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قراه... وكذلك كان الحال فى منطقة سيحون<sup>(١٩٨)</sup> وهذا النص نحاول أن نتعامل معه بشيء من التفصيل على حسب ما تيسر لنا من معلومات عن هذه البلاد:

### ١- إقليم بخارى:

تأتى بخارى على رأس مدن بلاد ما وراء النهر أهمية فى هذه الدراسة وقد سبق الحديث عن نشأة المدينة، ووفقاً لراوية النرشخى: فإن القوم بعد أن مهدوا الأرض، واستقروا فيها نصبوا أميراً عليهم يسمى «أبروى» والذى اتخذ من مدينة بيكند - معناها مدينة الأمير - مقراً لحكمه. ولكن سرعان ما أمعن هذا الحاكم فى الاستبداد<sup>(١٩٩)</sup>. وظلم الرعية، حتى

(١٩٧) د. عبد الشافى محمدعبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص ٣٣٨.  
(198) Gibb: The Arab Conquests. PP. 6-7.

(١٩٩) النرشخى: تاريخ بخارى، ص ٢٠.

اضطر بعض الأغنياء إلى الهجرة إلى مدينة (جمكنت)<sup>(٢٠٠)</sup> - ومعناها المدينة الطيبة الجميلة - واستنجدوا بالأمير التركي (فراجورين ترك) صاحب البلاد المجاورة لهم. والذي أرسل ابنه «شيركشور» - ومعناها أسد البلاد - مع جيش عظيم، ونجح في القضاء على أبروى.

### حكم شيركشور:

أعجب شيركشور بهذه الولاية، فأرسل إلى أبيه كتاباً يطلب منه البقاء ببخارى، فوافق أبوه، ثم استدعى شيركشور الأثرياء، وسمح لهم أن يكونوا طبقة النبلاء؛ التي عرفت باسم «خدا»<sup>(٢٠١)</sup>. هذا؛ وقد امتد حكم شيركشور ثلاثين عاماً وعندما توفي خلفه في الحكم أمير آخر - لم تذكر المصادر اسمه - وقد بنى عدة مدن ومنها: اسكجكت<sup>(٢٠٢)</sup>، وراميشن<sup>(٢٠٣)</sup>، وفرخشي<sup>(٢٠٤)</sup>.

### حكم السيدة خاتون<sup>(٢٠٥)</sup>:

ثم تولى حكم البلاد الأمير «بيدرون» الذي اتخذ لقب «بخارا خدا»<sup>(٢٠٦)</sup>. وظل في الحكم فترة قصيرة. وعندما مات ترك طفلاً

(٢٠٠) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ٣٨.

(٢٠١) د. أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، ص ١٦٥.

(٢٠٢) اسكجكت: لم أعرث عليها بهذا الاسم، وقد ذكر السمعاني وياقوت قرية «إسبىسكت» إنها من قرى سمرقند، ولعلها هي، السمعاني: الأنساب، ج ١، ص ١٢٩، ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٢.

(٢٠٣) راميشن: إحدى قرى بخارى، السمعاني: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٠. ياقوت: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٨٣.

(٢٠٤) فرخشي: إحدى قرى بخارى. ياقوت: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٢٣.

(٢٠٥) خاتون: كلمة صغدية شاعت فيما بين الترك والمغول، بمعنى ملكة، بارتولد: تاريخ الترك، ص ٥٠.

(٢٠٦) بخارا خدا: لقب ملك الترك. ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ٤٠.

رضيعاً اسمه «طغشاده»، فخلعته أمه «خاتون» وجلست هي على عرش البلاد<sup>(٢٠٧)</sup>. ويذكر النرشخي أن حكمها قد استمر خمس عشرة سنة<sup>(٢٠٨)</sup>، أو خمسين سنة على قول فامبرى<sup>(٢٠٩)</sup>. وقد تميزت هذه السيدة بالعدل، فكانت تحكم بصائب الرأي، ومن ثم فقد انقاد الناس لحكمها، ووكل بها من يحرسها ليل نهار، وهذه السيدة هي التي قاومت الفتوحات الإسلامية، كما سيأتى.

## ٢- إقليم خوارزم:

والكلام لا يختلف كثيراً عن بخارى، حيث كان يحكم خوارزم أسرة حاكمة عرفت بـ«شاهات خوارزم»<sup>(٢١٠)</sup>، يرجع أصل هذه الأسرة إلى أزمنة تاريخية أسطورية قبل الفتح الإسلامى. وكان ملكهم يحمل لقب «خسرو خوارزم»<sup>(٢١١)</sup> وكانت لغتهم الفارسية، وظلوا يكتبون بها حتى القرن الحادى عشر الميلادى<sup>(٢١٢)</sup>.

## ٣- إقليم طخارستان:

يأتى فى مقدمة إقليم طخارستان مدينة الصغانيان، وهم إن كانوا مجهولى الأصل، إلا أنهم اتخذوا قبل الإسلام لقب «صغان خدات». أما بعد الفتح الإسلامى فقد لقبوا بـ«آل محتاج»<sup>(٢١٣)</sup> على قول ابن حوقل.

- (٢٠٧) دائرة المعارف الإسلامية، ١٦م، ج٥، ص ٣٢٠.  
 (٢٠٨) النرشخي: تاريخ بخارى، ص ٢٣.  
 (٢٠٩) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ٣٩.  
 (٢١٠) بارتولد: تركستان، ص ٣٦٣.  
 (٢١١) انظر هذه الألقاب فى ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ٤٠.  
 (٢١٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا، ص ١٥٨.  
 (٢١٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٩٤.

أما مدينة الخُتُل فُكان ملكهم يحمل لقب «خُتُلان شاه» أو «شير خُتُلان»<sup>(٢١٤)</sup>. وإن كانت المصادر التاريخية لم تقدم لنا شيء عن تاريخ هذه البلاد قبل الفتح الإسلامي، إلا إنهم في القرن الثاني عشر الميلادي<sup>(٢١٥)</sup>، كانوا لا يزالون ينسبون إلى الملك الساساني بهرام جور(٤٢٠-٤٣٨م)<sup>(٢١٦)</sup>.

#### ٤- باقى الممالك:

أما باقى الممالك فلم تحدثنا المصادر بشيء عنها سوى ألقابهم ومنها: ملك الترمذ (ترمز شاه)، ملك الصغد (فيرون)، ملك فرغانة (أخشيد)، ملك أشروسنة (الأفشين)، ملك سمرقند (طرخان)، ملك كش (بيدون)، ملك ورودان (وردان شاه)<sup>(٢١٧)</sup>.

**وخلاصة القول:** إن بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح الإسلامي كانت مقسمة إلى إمارات صغيرة، وكان العداء مستمراً بينها، أما المجتمع فقد انقسم إلى طبقتين: طبقة الأغنياء وهى تعرف بـ«الدهاقين» وقد تمتعت بكافة الحقوق والمزايا، وطبقة أخرى فقيرة، هى طبقة «الفلاحين». وقد حُرمت من كل شيء<sup>(٢١٨)</sup> كل هذه العوامل والفروق الاجتماعية، جعلت بلاد ما وراء النهر مهيأة للفتح الإسلامي الذى سيخلصها من هذا التفكك السياسى والاجتماعى.

(٢١٤) دائرة المعارف الإسلامية، م١٦، ج١٢٨، ص٤٩٠.

(٢١٥) بارتولد: تركستان، ص٣٦٤.

(٢١٦) آرثر كريستنسن: إيران فى عهد الساسانيين، ص٢٦٦.

(٢١٧) انظر لمزيد من التفاصيل، ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص٣٩-٤٠، الخوارزمى:

مفاتيح العلوم، ص١١٩-١٢٠، كريستنسن: نفس المرجع، ص٤٨٢.

(٢١٨) د. حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص١١٥.

## المبحث الثالث: الأحوال الدينية

وإذا انتقلت للحديث عن الحياة الدينية في بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح الإسلامي، فإننا نجد لها لا تختلف كثيراً عن الحياة السياسية، فقد سادها التفكك، ولم توجد ديانة واحدة تلتف حولها شعوب المنطقة. هذا، والجدير بالذكر، أن الديانات المختلفة التي ظهرت في بلاد ما وراء النهر، لم تظهر في وقت واحد، بل ظهرت في أزمنة مختلفة، وأنها ظهرت أيضاً متأثرة بديانات الشعوب المجاورة لها من الصينيين، والهنود، والفرس.

وفيما يلي نلقى بعض الضوء على هذه الديانات:

### ١- الزرادشتية:

تنسب إلى زرادشت، وهو رجل من أهل أذربيجان<sup>(٢١٩)</sup>. وقد ظهر أيام الملك بشتاسف بن لهراسف<sup>(٢٢٠)</sup>. وقد زعم أتباعه بعض الأساطير حول ولادته. وقيل: إنه عندما بلغ سن الثلاثين دعا الملك إلى دينه فأجابته، وذلك بعد أن رأى على يده المعجزات كما يزعمون.

وأما عن مذهبه فهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بأن النور والظلمة أصلان متضادان<sup>(٢٢١)</sup>. وقد صنف كتاباً يدعو فيه لمذهبه يسمى [زند أوستا] أو [أفستا]. قسم فيه العالم إلى قسمين: الروحاني،

---

(٢١٩) أذربيجان: ومعناها أرض النار، وتقع بين برذغة شرقاً، إلى بلاد الديلم من الشمال، وهو إقليم واسع، به مدن مشهورة، ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص١٢٨-١٢٩.

(٢٢٠) هناك اختلاف حول كتابة هذا الاسم، انظر الطبري: تاريخ الأمم، ج١، ص٣١٧، وكريستنسن: إيران، في عهد الساسانيين ص١٣٢-١٥٠.

(٢٢١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص٤١. الإمام الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص٨٦.

والجسماني، أو الروح والشخص. ويدعى أن موارد التكليف ثلاثة: الاعتقاد، والقول، والفعل، وأتباعه يعظمون النار<sup>(٢٢٢)</sup> أكثر من غيرها، لمعان كثيرة منها: أنها لم تحرق إبراهيم عليه السلام.

هذا، وقد انتقلت هذه الديانة إلى بلاد ما وراء النهر، وأقيمت فيها بيوت لعبادة النار، ومنها: بيت بروسون، وبيت قباذان ببخارى. كما وجدت أماكن أخرى في خوارزم<sup>(٢٢٣)</sup>، وراميثن ويقول المجوس، إن هذه النار أقدم من بيت نار بخارى. ويحدثنا النرشخي؛ عن جماعة من الدهاقين تسمى (آل كثكثة) رحلوا عن بخارى بعد الفتح الإسلامي، وبنوا خارج المدينة سبعمائة قصر، وأقاموا فيها بيوتا لعبادة النار<sup>(٢٢٤)</sup>.

ويذكر البيروني أعياد المجوس في بلاد ما وراء النهر. ومنها: عيد يقام في بخارى كل عام يسمى (رامش آغام). كان المجوس يجتمعون فيه كل عام، وكان أعز الأعياد عندهم. وعيد آخر كان يقام في مدينة (بيكند) يسمى (بجج آغام). كانوا يأكلون فيه بعد تركهم الطعام فترة طويلة<sup>(٢٢٥)</sup>. وأما آخر هذه الأعياد فكانت تقام في مدينة كشمين<sup>(٢٢٦)</sup>.

## ٢- البوذية:

تنسب إلى بوذا سف (٥٦٦ - ٤٨٦ ق.م). وهي تعنى: المنور. وقد ظهر بوذا في أول حكم الملك طهمورث بأرض الهند<sup>(٢٢٧)</sup> وبمرور الوقت صار له أتباع كثيرون.

- (٢٢٢) القرويني: آثار البلاد، ص ٣٩٩، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٩٣.  
(٢٢٣) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٢٦-٢٢٧، النويري: نهاية الأرب، ج ١، ص ١٠٨.  
(٢٢٤) النرشخي: تاريخ بخارى، ص ٣٥-٥٢.  
(٢٢٥) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٢٠٤.  
(٢٢٦) كشمين: إحدى قرى بخارى، ذكرها السمعاني وياقوت بالسين. انظر الأنساب، ج ٥، ص ١٥، ومعجم البلدان، ج ٤، ص ١١٤.  
(٢٢٧) ابن النديم: الفهرست، ص ٤١٩، البيروني: المصدر السابق، ص ١٧٣.

تسربت هذه الديانة إلى بلاد ما وراء النهر مبكرًا، فقد ذكر النرشخي، أن الملك شيركشور، بعد أن بنى بخارى، زوج ولده من ابنة ملك الصين. وعندما حضرت العروس إلى بخارى، جاءوا في جهازها ببعض الأصنام، وأقيمت لها معبد في مدينة راميثن. وهكذا اعتنق الأتراك (التورانويون) عبادة الأصنام، بينما ظل الإيرانيون على العبادة الزرادشتية، وظل الصراع قائمًا بين الديانتين، أو قل بين العرقين التوراني والإيراني<sup>(٢٢٨)</sup>. ونعود إلى أماكن عبادة البوذية في بلاد ما وراء النهر، فنجد ابن الفقيه يذكر عن بيت (النوبهار)<sup>(٢٢٩)</sup> المقام ببلخ، - والذي كان ملوك الصين، وكابل يحجون إليه؛ ويسجدون للصنم الأكبر به - أن هذا المعبد كان له وقف في مدينة طخارستان. يقال له (زوان)، وصلت مساحته إلى ثمانية فراسخ في أربعة فراسخ<sup>(٢٣٠)</sup> وأهله كلهم عبيد للبيت.

ويذكر المقدسي، أن عبادة الأصنام كانت منتشرة في مدينة تكابكث، وسمنجات، وخمدان. ويؤكد صاحب حدود العالم على أن هذه الأصنام كانت منحوتة في الصخر، وأنها من عمل الهنود<sup>(٢٣١)</sup>. كذلك ظهرت هذه العبادة في مدينة فرغانة، وكان معبدها يسمى [بيت كاوسان] قال عنه الشهرستاني: «إنه بيت عجيب على اسم الشمس، وقد خربه المعتصم العباسي»<sup>(٢٣٢)</sup>.

وبخصوص بخارى - فقد سبقت الإشارة - إلى أنها قد اشتقت من كلمة «بُخر» وهي بمعنى دير أو صومعة، حيث كان للبوذيين معبد

(٢٢٨) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ٥١.

(٢٢٩) حول وصفه أنظر، المسعودى: مروج الذهب، ج-٢، ص ٢١٦، النويرى: نهاية

الأرب، ج-١، ص ٥٨. واليعقوبى: البلدان، ص ٢٨٨.

(٢٣٠) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٣٢٣.

(٢٣١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٥، مجهول: حدود العالم، ص ٧٨-٩٤.

(٢٣٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ج-٣، ص ٧٨. والنويرى: نهاية الأرب، ج-١،

ص ٥٨، يذكر أن الخليفة المعتضد بالله هو الذى خربه.

فيها، أو على مقربة منها في سمرقند. والذى يُعضد هذه القول ما ذكره النرشخي، من أنه كان يقام سوق لبيع الأصنام في بخارى يسمى (بازار ماخ روز): كان يقام مرتين في العام لمدة يوم واحد، وكان يباع فيه من الأصنام ما تربو قيمته على خمسين ألف درهم وذلك لأن كل شخص يشتري لنفسه صنما يحمله إلى بيته<sup>(٢٣٣)</sup>.

كذلك وجد معبد للأصنام في مدينة بيكند، فقد ذكرت المصادر الإسلامية، أن القائد قتيبة ابن مسلم (٤٩-٩٤هـ / ٦٦٩-٧١٥م) عندما فتح هذه المدينة وجد فيها معبدًا للأصنام عثر فيه على صنم من الفضة يزن أربعة آلاف درهم. بالإضافة لبعض الأواني الأخرى التي صنعت من الفضة الخالصة، والتي كانت تزن مائة وخمسين ألف مثقال<sup>(٢٣٤)</sup>. فقام بإحراقها، مما كان له أثر كبير في نشر الإسلام بين أهل هذه البلاد.

### ٣- المانوية:

يُعرف صاحب «مفاتيح العلوم» المانوية بقوله: «طائفة منسوبة إلى ماني، ويطلق عليهم الزنادقة»<sup>(٢٣٥)</sup>. فمن هو ماني هذا؟! هو: ماني بن فتق بابك بن أبي برزام، وأمه تسمى (ميس) أو (.)، كانت تركية، وكان أبوه يعمل في بيت للأصنام، وزعم أتباعه أن أمه كانت ترى له المنامات الحسنة، وأنه كان يتكلم في صغره بالحكمة، وأن الوحي نزل عليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ويورد لنا ابن النديم نص هذا الوحي<sup>(٢٣٦)</sup>.

(٢٣٣) النرشخي: تاريخ بخارى، ص ٤٠.

(٢٣٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج١، ص ١٦٧.

(٢٣٥) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ٣٧.

(٢٣٦) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٩٩. السمعي: الأنساب، ج ٢، ص ١٨٧.

خرج مانى فى حكم سابور بن أردشير<sup>(٢٣٧)</sup>، ودعا إلى مبدأ النور والظلمة، وفرض على أصحابه عشر فرائض. وكان يقدر النار، ويجعلها قبلته<sup>(٢٣٨)</sup>. وألف مانى الكثير من الكتب أهمها: كتاب (الشابرقان)<sup>(٢٣٩)</sup>، والذى ترجم فيه لحياته، وشرح فيه أصول مذهبه وباعتناق الملك الفارسى سابور لمذهب المانوية، فقد انتشرت فى إقليم فارس. وقد ظلت هناك حتى حكم الملك بهرام بن هرمز والذى قبض على مانى، وقتله صبراً<sup>(٢٤٠)</sup>. ثم أخذ يضطهد أتباعه مما أدى إلى هجرتهم إلى بلاد ما وراء النهر<sup>(٢٤١)</sup>. وهكذا؛ ظهرت المانوية فى بلاد ما وراء النهر، وأصبحت الرئاسة فيهم. يقول البيرونى: «وبقى من مستجيبة (أى مانى) بقايا منسوبة إليه مفترقة الديار لا يكاد يجمعهم موضع واحد فى بلاد الإسلام إلا الفرقة التى بسمرقند المعروفين بالصابئين»<sup>(٢٤٢)</sup>. ويوافق صاحب حدود العالم إلا إنه يسميهم (نغوشاك)<sup>(٢٤٣)</sup>. أما صاحب الفهرست فيطلق عليهم (المانية)، ويورد لنا صورة خطهم الذى كانوا يكتبون به شرائعهم<sup>(٢٤٤)</sup>. ومن الجدير بالذكر، أن هذه الطائفة قد ظلت منتشرة فى بلاد ما وراء النهر حتى عصر الدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م) وفى ولاية خالد بن عبد الله القسرى. كان عددهم بسمرقند نحو خمسمائة رجل.

(٢٣٧) ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٢٩٩، كريستنن: إيران فى عهد الساسانيين ص١٧٠ وما بعدها.

(٢٣٨) الشهرستانى: الملل والنحل، ج٢، ص٤٩، القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٩٦.

(٢٣٩) ابن النديم: الفهرست، ص٤٠٨-٤٠٩، البغدادي: الفرق بين الفرق، ص١٦٢،

السعاني: الأنساب، ج٣، ص١٧٣.

(٢٤٠) الدينورى: الأخبار الطوال، ص٩١. واليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج١، ص١٣٩.

(٢٤١) كريستنن: إيران فى عهد الساسانيين، ص١٩٠-١٩١.

(٢٤٢) البيرونى: الآثار الباقية، ص١٧٨.

(٢٤٣) مجهول: حدود العالم، ص٨٤.

(٢٤٤) ابن النديم: الفهرست، ص٣-٤١٠.

وعندما اشتهر أمرهم، وهَمَّ خالد بقتلهم أرسل إليه ملك الصين يحذره من ذلك، ويهدده بقتل المسلمين في بلاده، فكف خالد عنهم، وأخذ منهم الجزية. وحماية ملك الصين للمانويين أمر طبيعي، لأنه كان على مذهبهم، يقول الإمام الرازي: «وهرب أصحاب مانى بعد قتله إلى الصين، ودعوا إلى دين مانى فقبله أهل الصين منهم»<sup>(٢٤٥)</sup>.

هذا؛ ولم تنته المانوية بسقوط الدولة الأموية، بل استمرت خلال الدولة العباسية - فترة البحث - ويذكر ابن النديم - الذى ندين له بالفضل حول ذكر هذه الطائفة - "إن هؤلاء القوم يسمون حالياً (أى) عام ٣٧٨هـ/٩٨٨م) أجارى، وهم برستاق سمرقند و الصغد، وانتقلت الرئاسة إلى سمرقند، وصاروا يعقدونها هناك"<sup>(٢٤٦)</sup> وخلال هذه الفترة انقسمت طائفة المانوية إلى فرقتين. وهما: المهرية والمقلاصية، أتباع مقلاص. الذى ظهر فى خلافة أبى جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م) وخالف أهل مذهبه فى أشياء استحدثها ولم يزل حالهم على ذلك، حتى خلافة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) فظهر رجل منهم يسمى «يزدان بخت»، فدعا إلى مذهب جديد، وانضمت إليه جماعة منهم. وقد استمرت هذه الفرقة حتى عصر الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤١م)، وكان رئيسهم يدعى «أبو على سعيد». وقد خالفه كاتبه «نصر ابن هرمزد السمرقندى» فى أشياء رخصوا فيها لأهل المذهب<sup>(٢٤٧)</sup>، وقد استمرت هذه الطائفة حتى ذلك التاريخ، ولم نعد نعثر على تفاصيل خاصة بهم بعد هذا التاريخ.

(٢٤٥) الرازي: اعتقادات فرق المسلمين، ص ٨٨.

(٢٤٦) ابن النديم: الفهرست، ص ٤١٠-٤١١.

(٢٤٧) ابن النديم: نفس المصدر، ص ٤٠٧-٤١٠.

#### ٤- المزدكية:

مؤسس هذه الفرقة هو مزدك بن همد ادان (وعند البيروني الرازي نامدان)<sup>(٢٤٨)</sup>، ظهر أيام الملك قباذ بن فيروز، وقد استجاب هذا الملك لدعوته، التي تتلخص في اشتراك الناس في الأموال والحرم، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكأ، وأمرهم بتناول المذات والانعكاف على الشهوات<sup>(٢٤٩)</sup>، ويشير صاحب الفهرست إلى مؤلفات مزدك وأهمها كتاب الزند<sup>(٢٥٠)</sup>، الذي ترجمه عبد الله بن المقفع<sup>(٢٥١)</sup> - ثم أبان بن عبد الحميد بن لاحق - إلى العربية، ولكنه للأسف لم يصل إلينا. ويبدو أن مذهب مزدك الذي يدعو إلى الإباحية والانحلال كان يهدد النظام الاقتصادي في الدولة الساسانية، فعندما اعتلى كسرى أنوشروان عرش الدولة، أمر بقتل مزدك<sup>(٢٥٢)</sup> ومع هذا، فقد تسربت هذه الدعوة إلى بلاد ما وراء النهر، فيحدثنا الشهرستاني أن أتباع مزدك كانوا منتشرين في صغد سمرقند والشاش وإيلاق<sup>(٢٥٣)</sup>، ومن أشهر فرقهم: الماهانية، والأسبيد خامكية<sup>(٢٥٤)</sup>.

#### ٥- المسيحية:

هم أمة عيسى بن مريم - عليه السلام - وقد اختلف أتباعه حول طبيعته، ومن ثم فقد انقسموا إلى ثلاث فرق. وهي: الملكانية،

(٢٤٨) البيروني: الآثار الباقية، ص ١٣٩، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين، ص ٨٩.

(٢٤٩) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ١٦١.

(٢٥٠) ابن النديم: الفهرست، ص ١٥٠-١٩٨، ٣٠٣، ٤١٦.

(٢٥١) الجهشياري: الوزراء والكتّاب، ص ١٠٩، أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١، ص ٢١١.

(٢٥٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٧، الطبري: تاريخ الأمم، ج ١، ص ٤٢٢-٤٢٣.

(٢٥٣) الشهرستاني: الملل والنحل، ج ٢، ص ٥٤-٥٥.

(٢٥٤) السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ١٨٩.

والنسطورية، واليعقوبية. ولا أخوض في هذه الانقسامات، وإنما يلزمني منها، طائفة النساطرة.

يعرفهم صاحب مفاتيح العلوم بأنهم «المنسوبون إلى نسطورس وكان أحدث رأياً فنّفوه عن مملكة الروم، فليس بها أحد منهم»<sup>(٢٥٥)</sup> ويزيدنا الشهرستاني فيقول: «هم أصحاب نسطور الحكيم؛ الذي ظهر في زمان المأمون. وتصرف (أى نسطور) فى الأناجيل بحكم رأيه، وقال: إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم والحياة، واتحدت الكلمة بجسد المسيح كإشراق الشمس فى كورة»<sup>(٢٥٦)</sup>. وهم يختلفون مع باقى المذاهب المسيحية فى أمور أخرى يطول شرحها<sup>(٢٥٧)</sup>.

والسؤال الآن: كيف انتقلت المسيحية (النسطورية) إلى بلاد ما وراء النهر؟ وما هى أهم مراكزها هناك؟

أقول، أدت مطاردة الدولة البيزنطية للنساطرة المنشقين على الكنيسة - بسبب الاختلاف حول طبيعة السيد المسيح وأشياء أخرى - إلى أن انطلق هؤلاء النساطرة إلى مكان بعيد عن الإمبراطورية البيزنطية فكان هذا المكان بلاد ما وراء النهر وكان من الطبيعى أن يكسب هؤلاء عطف الساسانيين - بسبب كراهيتهم وعدائهم للبيزنطيين<sup>(٢٥٨)</sup> - وقد صادفت جهود النساطرة شىء من التوفيق بسبب النضال المرير بين الزرادشتية والمناوية.

أما عن أهم مراكز النساطرة فى بلاد ما وراء النهر، فبالرجوع إلى المصادر التاريخية، نقرأ عند المقدسى أن مدينة ميركى، بها جامع كان

(٢٥٥) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ٣٣.

(٢٥٦) الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص ٢٩-٣٠.

(٢٥٧) المقرئ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٤، ص ٤٠٧، والقلقشندي: صبح

الأعشى، ج١٣، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٢٥٨) إدوارد جييون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ج١، ص ٤٣٠، وما بعدها.

في القديم كنييسة<sup>(٢٥٩)</sup>. ويحدثنا ابن حوقل عن مدينة الشاوذار بسمرقند أن بها «عُمر (كنائس) للنصارى فيه مجمع لهم، وبه مساكن حسنة نزهة». ويخبرنا أنه رأى بها قومًا من نصارى العراق سكنوا هذه المنطقة لنزاهتها حيث كانت تشرف على الصغد. وكان هذا الموضع يسمى «بوزكرده». ويقول أيضًا عن مدينة «وينكرد» - إحدى قرى إقليم الشاش - إنها «قرية للنصارى»<sup>(٢٦٠)</sup>.

وابن النديم يحدثنا عن أحد الثقات - لم يسمه -: إنه دخل بلاد الصغد بناحية بلاد ما وراء النهر، ووجد أهلها نصارى<sup>(٢٦١)</sup>، وأورد لنا صورة خطهم، والقزوينى وهو يعدد لنا ديانات التركستان فيذكر منهم النصارى<sup>(٢٦٢)</sup>. والقلقشندى يذكر أن بمدينة (كاث) - عاصمة خوارزم - مائة بيت للنصارى<sup>(٢٦٣)</sup>. والبيرونى يقول: إن عيدًا للنصارى يعقد كل عام فى شهر أيار (مايو) فى مدينة خوارزم يسمى عيد الوُرد، حيث كانت الكنائس تزين فيه بالورود<sup>(٢٦٤)</sup>.

هذا، وقد ظلت المسيحية فى بلاد ما وراء النهر، وأنشئت فى سمرقند أسقفية بابوية بين عامى ٤١١ - ٤١٥م<sup>(٢٦٥)</sup>. ويذكر أحد المستشرقين أن المسيحية قد استمرت حتى القرن التاسع الميلادى (٣هـ)، وإن كانت

---

(٢٥٩) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٥.

(٢٦٠) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤١٠ - ٤١٦. ويسمىها الإصطخرى: السوادار،

المسالك والممالك، ص ١٨٠.

(٢٦١) ابن النديم: الفهرست، ص ٣١.

(٢٦٢) القزوينى: آثار البلاد، ص ٥١٥.

(٢٦٣) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٥٤ - ٤٥٤.

(٢٦٤) البيرونى: الآثار الباقية، ص ٣٦٣.

(٢٦٥) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ٥٣.

بأعداد ضئيلة، وبمرور الوقت دخل الناس فى الإسلام ولم يوجد إلا قلة ضئيلة بأواسط آسيا فى أواخر القرن الثالث عشر (٧هـ) (٢٦٦).

وهكذا رأينا بلاد ما وراء النهر وآسيا الوسطى كانت كلها تعيش فى حالة من الاضطراب الدينى. من تشدد الزرادشتية، إلى إباحية المزدكية، وتعقيد المسيحية. هذه الديانة السماوية التى كان يفترض فيها أن تشعر الناس بالأمان والطمأنينة، صارت هى الأخرى فى غموض شديد؛ واختلاف مرير، لذا فكانت المنطقة كلها مهياً للدين الإسلامى الحنيف الذى يتماشى مع العقل وتستقيم به الفطرة. ويعجبنى هنا قول المستشرق الإنجليزى توماس آرنولد فيقول: «جاء الإسلام يكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى، ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد... هكذا قُدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم، وأن يفتح أمام الناس سُبلاً واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يعدهم بتخليصهم فى أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة» (٢٦٧).

## ٦- التوحيد:

لا يلزم بالضرورة أن نسلم للمستشرقين - مع عظيم علمهم - بكل الأبحاث التى كتبوها عن ديانات منطقة آسيا الوسطى، وذلك لأن معظم هذه الأبحاث قد كتبت فى ظل الحكم الشيوعى لهذه البلاد. فأراد المستشرقون أن يقطعوا كل صلة تربط بين هذه الشعوب وعالمهم الإسلامى. فلم يذكروا عن ديانة التوحيد شياً (٢٦٨).

(٢٦٦) سانت موسى: ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٦٨.

(٢٦٧) توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٢٦٨) د. أحمد فؤاد سيد: الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، ص ٢٤.

أقول؛ ونحن نؤمن عن يقين، بأن التوحيد قد ظهر فى هذه المنطقة وأن الله عز وجل قد أرسل إليهم الأنبياء والمرسلين، ومصدق ذلك قول المولى عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤) ﴿٢٦٩﴾ وأما عن أسماء هؤلاء الأنبياء والمرسلين، فلم يخبرنا المولى عز وجل عنهم ولكنه قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (٢٧٠) ومن مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٢٧١). فإن العبادة لا تتصور بدون التعليم الإلهى وذلك لا يكون إلا بإرسال الرسل. ودليل آخر، وهو قول الرسول ﷺ: «... وكانت الأنبياء قبلى يبعثون إلى قومهم خاصة وبعثت إلى الناس عامة» (٢٧٢) وفى حديث أبى زر قال: سألت النبى ﷺ كم عدد النبيين؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً (٢٧٣). إذا: لا نستبعد مطلقاً أن يُرسل الله تعالى الأنبياء والمرسلين لأهل هذه المنطقة لينذرهم. ثم، أيعقل أن تظهر هذه العقائد مثل: الزاردرشتية، والبوذية، والمزدكية، والمانيوية ولا يظهر بينهم التوحيد؟! إننى أتفق تماماً مع الرمزي فى قوله عن سكان آسيا الوسطى «وقصرهم العبادة على المعبود بالحق جل جلاله، وتخصيصه بها، وتوحيد رب العالمين دائماً، فضلاً عن إثباته سبحانه، يُعلم ذلك فى تفتيش أقوال المحققين المتحررين للصواب المتجنبيين عن الجزاف» (٢٧٤).

(٢٦٩) سورة فاطر، آية ٢٤.

(٢٧٠) سورة غافر، آية ٧٨.

(٢٧١) سورة الذاريات، آية ٥٦.

(٢٧٢) حديث صحيح ابن حجر: فتح البارى، ج١، ص٥١٩، رقم ٣٣٥.

(٢٧٣) ابن قتيبة: المعارف، ص٣٣، وابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٦، ص٢٦٧.

(٢٧٤) الرمزي: تليق الأخبار عن تليق الآثار فى وقائع قرآن وبلغار وملوك التتار، ج١، ص٤١-٤٢.

## المبحث الرابع: الأحوال الاقتصادية

تنقسم الحياة الاقتصادية - عادة - إلى زراعة، وصناعة، وتجارة والعملية المستخدمة في التبادل الاقتصادي، وأنبه إلى أنني لم أعتد على معلومات تفيد البحث عن تطور الصناعة في هذه المنطقة قبيل الفتح الإسلامي، لذا فسوف أعرض عن ذكرها.

### أولاً: الزراعة:

عُرفت بلاد ما وراء النهر بالخصب، وعلى الرغم من وجود الجبال والصحارى التى تحيط بها، إلا إن نهر الصغد (جيحون) كان العامل الأساسى وراء خصوبة أراضيها. وقد أفرد النرشخى فصلاً فى كتابه «تاريخ بخارى» لأنهار المدينة، وذكر من هذه الأنهار، نهر يسمى «شابوركام». قيل فى سبب تسميته بذلك، أن أحد أبناء كسرى من آل ساسان - لم تذكر الراوية اسمه - غضب من أبيه، وجاء إلى هذه الولاية. فأكرمه حاكمها، وأعطاه المكان ليعمره، فحفر شابور نهرًا عظيمًا، وسماه الناس باسمه. وأقام على ذلك النهر رساتيق، وبنى قصرًا له. وبقيت هذه الرساتيق من بعده ميراثًا لأولاده حتى جاء قتيبة بن مسلم فرد عليهم هذه الرساتيق من أسرة «بخاراخدا» التى اغتصبتها منهم، ويختتم النرشخى كلامه بعد أن ذكر اثني عشر نهرًا فى بخارى بقوله: «ولكل نهر ذكرناه رساتيق كثيرة، وماء غزير، ويروى أن كل هذه الأنهار حفرها الناس ماعدا نهر (عاوختغر) فإنه نهر طبيعى حفره ماؤه دون جهد من الأهالي»<sup>(٢٧٥)</sup>.

(٢٧٥) النرشخى: تاريخ بخارى، ص ٥٤-٥٥.

ويذكر الإصطخرى وابن حوقل الأنهار التي تتفرع من نهري جيحون وسيحون<sup>(٢٧٦)</sup>. مما أدى إلى خصوبة التربة وتقدم الزراعة في هذه المنطقة. وإذا سألنا عن أى عناصر السكان كانت تعمل فى الزراعة؟ فإن المستشرق جب، يجيب «بأنه الجنس الإيرانى»<sup>(٢٧٧)</sup>. أما باقى الأجناس فكانت تعمل فى حرف أخرى.

أما عن الحاصلات الزراعية فى بلاد ما وراء النهر فهى كثيرة ومتنوعة منذ قديم الزمان وظلت وتطورت بعد الفتح الإسلامى، ومنها: القطن، والفواكه بجميع أنواعها ومنها: العنب، والتفاح، والتين، والبطيخ. ومن البقول: اللفت، والكرنب. ومن الرياحين: الورد، والبنفسج والزعفران<sup>(٢٧٨)</sup>. كذلك اهتموا بالبساتين اهتماماً كبيراً، فقد ذكر النرشخى عن (آل كثكثة) - سبقت الإشارة إليهم - «إنهم أقاموا القصور، وكانت على أبوابها البساتين الجميلة الناضرة. وكانت ضياعهم عزيزة للغاية»<sup>(٢٧٩)</sup>.

والجدير بالذكر، أن بلاد ما وراء النهر قد عرفت الأعياد المرتبطة بالزراعة. ومنها: عيد السمسم، ويسمى (هرو داد). حيث كان يزرع السمسم فى هذا الوقت من كل عام، فصار عيداً لهم. ومنها: عيد الحنطة، وهو اليوم الخامس عشر من جبرى - أحد شهورهم - وكان يأتى فى فصل الخريف. وأخيراً، عيد النيروز ويسمونه «نوروز الفلاحين»<sup>(٢٨٠)</sup>.

---

(٢٧٦) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٦٦، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٩٣.  
(277) Gibb: The Arab Conquestes.p.5

(٢٧٨) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٣٢.

(٢٧٩) النرشخى: تاريخ بخارى، ص ٥٢.

(٢٨٠) النرشخى: نفس المصدر، ص ٣٦، وهذا العيد يعرف حالياً «بعيد الفلاح» وهو بخلاف عيد النيروز الخاص بالمجوس كما نبه النرشخى والقلقشندى على ذلك فى كتابه، =

وكان يأتي في آخر شهور السنة، في اليوم الحادى والعشرين<sup>(٢٨١)</sup> وكان الفلاحون يحافظون على هذا العيد ويعتمدون عليه.

### ثانياً: التجارة:

أخذت التجارة نصيباً كبيراً من عناية الأهالى، نظرا لموقع بلاد ما وراء النهر على طرق التجارة الدولية. لذا فقد أوردت لنا مصادرنا الإسلامية الكثير عن التجارة الداخلية، على حين اهتمت المراجع الأجنبية بالتجارة الخارجية. وفيما يلي التفصيل:

#### ( أ ) التجارة الداخلية:

كان مركز هذه التجارة الأسواق. ومنها: سوق الطواويس، وهو سوق يعقد من قديم الزمان، ومن تقاليده أن تباع به سنوياً لمدة عشرة أيام فى فصل الخريف بقايا السلع المعيبة. ولم يكن فى الإمكان ردها ثانية، وكان يزدحم الناس فى هذا السوق، حيث كان يحضره أكثر من عشرة آلاف تاجر. ومنها سوق شرغ: وهو سوق قديم كان التجار يأتون كل سنة من الولايات البعيدة لحضوره، وكان يعقد لمدة عشرة أيام فى فصل الشتاء، وكانت معظم السلع فى هذا السوق من الحلوى والسمك المملح والطازج، والفراء... إلخ. وكانت التجارة به رائجة. ومنها سوق ورخشة: كان يعقد كل خمسة عشر يوماً. وحين يأتى هذا السوق آخر العام يجعلونه عشرين يوماً<sup>(٢٨٢)</sup>. ومنها سوق «ماخ روز»، وهو ينسب

=صبح الأعىشى، ج٢، ص٣٨٠، وعن عيد النيروز انظر، بطليموس الحكيم: ما جاء فى النيروز وأحكامه، ص٤٧-٤٨، وابن سينا: الرسالة النيروزية، نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، ج٢، ص٣٠.

(٢٨١) البيرونى: الآثار الباقية، ص٢٠٥.

(٢٨٢) النزخى: تاريخ بخارى، ص٢٨، ٣٠، ٣٦، ٤٠. البيرونى: الآثار الباقية،

ص٢٠٤-٢٠٥.

إلى ملك من ملوك بخارى اسمه «ماخ»، هو الذى أمر بإقامته، وكان يأمر النجارين، والنقاشين بنحت الأصنام من العام إلى العام، حيث كانت تباع فى هذا السوق، وقد وصلت جملة ما يباع منها ما قيمته خمسين ألف درهم فى اليوم الواحد<sup>(٢٨٣)</sup>. وكانت هناك بعض الأسواق الأخرى يقول عنها البيرونى: «ولهم قيام أسواق فى القرى فى الأيام التى أساميتها فى كل شهر واحدة، تستعمل فى رساتيق بخارى والصغد»<sup>(٢٨٤)</sup>. ولا يخفى علينا أهمية الطرق البرية التى يسرت على التجار طريق الوصول إلى المدن والقرى ذات الأسواق. ولا يخفى علينا كذلك أهمية هذه الأسواق من الناحية الاجتماعية، فقد ساهمت فى اندماج أهالى القرى، الأمر الذى كان من شأنه أن يربط بين سكان بلاد ما وراء النهر، بحيث صار يعول على التجارة أملاً فى الوصول إلى الوحدة بين سائر سكان المنطقة<sup>(٢٨٥)</sup>.

### (ب) التجارة الخارجية:

تمتعت بلاد ما وراء النهر بموقع جغرافى ممتاز، ساعد على تقدم وازدهار التجارة الخارجية بها. خاصة بعد ظهور تجارة الحرير وهذا يحتاج إلى وقفة سريعة ألقى الضوء فيها على هذه التجارة المهمة. من قديم الزمان كانت صناعة الحرير مزدهرة فى بلاد الصين، وكان سر هذه الصناعة مكتوماً بحرص شديد، وكانت بلاد الصغد - بخارى وسمرقند - همزة الوصل بين إمبراطورية الصين، والإمبراطورية البيزنطية<sup>(٢٨٦)</sup>. وكان يطلق على الحرير اسم سيرس Series، ومن ثم أطلق على سكان الصغد الذين كانوا يحملونه إلى الغرب اسم سيرس.

(٢٨٣) مجهول: حدود العالم، ص ٨٤، السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ١٥٩.

(٢٨٤) البيرونى: المصدر السابق، ص ٤٠.

(٢٨٥) د. محمد أحمد محمد: بخارى فى صدر الإسلام، ص ١١.

(٢٨٦) جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، ج ٢، ص ٢٨٥، سانت موسى: ميلاد

العصور الوسطى، ص ١٦٠.

## أثر ظهور الترك على تجارة الحرير:

سبقت الإشارة في المبحث السابق إلى أن ظهور الترك في المنطقة كان له أثر كبير على الناحية السياسية والاقتصادية، وقد أشرت إلى أثرها على الناحية السياسية، فما هو إذاً أثرها على الناحية الاقتصادية؟ يصف المؤرخ الاقتصادي هايد، قيام الإمبراطورية التركية بأنه كان «بمثابة ركن غائر بين الصين وفارس»<sup>(٢٨٧)</sup> وذلك بحكم موقع الأتراك الجغرافي المهم، والذي ساعدها على أن تتحكم في طرق التجارة الدولية التي تربط بين الشرق والغرب، وهذه الطرق باختصار هي<sup>(٢٨٨)</sup>:

١- طريق الشمال:

يبدأ من الحدود الصينية، ويمر بصحراء جوبي ويصل إلى نهر سيحون، ومنها إلى الإمبراطورية البيزنطية، وهذا الطريق أقل الطرق خصوبة، وأكثرها وعورة.

٢- الطريق الأوسط<sup>(٢٨٩)</sup>:

يمتد من حدود الصين، ثم يمر بجبال تيان شان ثم يصل إلى مدينة كاشغر، ومنها يتجه إلى إقليم فرغانة، وأشروسنة، ماراً بأسواق بلاد الصغد - بخارى وسمرقند - ومن هناك ينحرف صوب الجنوب الغربي حتى يصل إلى بلاد فارس. وكان هذا الطريق أكثر الطرق ثراء وخصوبة واستخدماً.

---

(٢٨٧) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج١، ص٢٦.  
(٢٨٨) ديفيد براونستون: طريق الحرير، ص٢٣ وما بعدها. هايد: المرجع السابق، ج١، ص٢٧.  
(٢٨٩) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص١٥٨.

### ٣- الطريق الجنوبي :

ويبدأ من الصحراء الشاسعة على الحدود الصينية، حتى مدينة يوغنك<sup>(٢٩٠)</sup>، ثم يجتاز هضبة البامير، ثم إقليم بذخشان وطخارستان، ثم يصل أخيراً إلى الهند<sup>(٢٩١)</sup>.

يتضح لنا من هذه الطرق الثلاث، أن التجارة التي تريد الوصول إلى الغرب، كان لا بد لها من المرور على الإمبراطورية التركية، المشهورين بمهارة التجار<sup>(٢٩٢)</sup>، وكان من الطبيعي أن تقف الإمبراطورية الفارسية (الساسانيين) من الأتراك موقف العداء، إذ كان في مقدور جيش تركي أن يتوغل في إقليم فارس بحجة حماية القوافل الصغدية لذلك فقد منع ملك فارس دخول الحرير إلى بلاده مطلقاً<sup>(٢٩٣)</sup>، بل قام بحرق الحرير أمام أنظار المبعوث التركي بعد أن دفع له ثمنه.

وهكذا بات الموقف عصيباً، فرأى أهل الصغد ضرورة البحث عن أسواق جديدة لتصريف تجارتهم. فكان عليهم التوجه إلى الإمبراطورية البيزنطية، فهم أكثر الأمم استهلاكاً للحرير والتوابل. ونجحت السفارة التي أرسلت إلى الإمبراطور جستنيان<sup>(٢٩٤)</sup> الذي أحسن استقبالها وأرسل مبعوثاً من قبله إلى الإمبراطورية التركية. وبالفعل؛ راجت التجارة بين الجانبين. وبمرور الوقت ارتفع عدد الأتراك (من أهل الصغد) في القسطنطينية، بحجة مزاوله التجارة، إلى بضع مئات في زمن وجيز.

---

(٢٩٠) يوغنك: من قرى سمرقند: السمعاني: الأنساب، ج٥، ص٧١، ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٥١٣.

(٢٩١) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص٣٣٢.

(٢٩٢) شاخت: تراث الإسلام، ج١، ص١٧٦.

(٢٩٣) هايد: تاريخ التجارة، ج١، ص٢٨، براونستون: طريق الحرير، ص٢١٥.

(٢٩٤) جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، ج٢، ص٢٨٦.

## أثر سقوط الإمبراطورية التركية على تجارة الحرير:

لم تستمر العلاقات بين الجانبين - الأتراك والبيزنطيين - طويلاً، إذ أنه في النصف الأول من القرن السابع الميلادي - كما سبقت الإشارة - انهارت الإمبراطورية التركية أمام هجمات الصينيين، وابتهجت القبائل التي كانت تمارس التجارة في إقليم الصغد لهذا التغيير، إذ أصبح في مقدورها أن تصل إلى الصين دون أن تصادف أية عوائق<sup>(٢٩٥)</sup>.

وعادت قوافل الساسانيين والبيزنطيين تجوب الطرق للحصول على الحرير الخام من الصين بأقل الأسعار. وإذا كانت التجارة الداخلية قد ربطت بين سكان بلاد ما وراء النهر، فإن التجارة الخارجية قد ربطت بين بلاد ما وراء النهر والعالم الخارجي، يقول المستشرق جب: «وكان أقوى ما يصل بين الولايات من رباط إنما هو تجارة الحرير مع الصينيين، وأهم مراكزها سمرقند، وبيكند، وكش. وكانت سمرقند أوفرها حظاً من النجاح في عالم التجارة، ومنها كانت ترسل البعوث التجارية الكثيرة إلى بلاط ملك الصين»<sup>(٢٩٦)</sup>.

هذا، ولم تقتصر التجارة الخارجية لبلاد ما وراء النهر على الحرير فقط، بل شملت بعض السلع الأخرى نكتفى بالإشارة إليها. ومنها: القصدير، والحديد، والأحجار الكريمة، من أمثلة: أحجار اليشب والفضة، والماس، والجواهر، والمنسوجات الصوفية، والعقاقير والتوابل، والعمور، وبعض الأدوات المنزلية، وغيرها<sup>(٢٩٧)</sup>.

(٢٩٥) هايد: المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٣٠، براونستون: المرجع السابق، ص ٢١٧.

(296)Gibb: The Arab Conquests - P 5-6.

(٢٩٧) براونستون: المرجع السابق، ص ٧٨، ٨٥، ٦٧، ١٠٣، ١٠٤.

أما عن وسائل النقل المستخدمة فى نقل السلع على الطريق البرية، فمنها: الخيل، والبغال، والحمير، والجمال<sup>(٢٩٨)</sup>. وكانت هذه الحيوانات تسير فى نظام القوافل. وكان التجار يتبعون طرقاً رئيسية، وضعت عليها العلامات الإرشادية لمساعدتهم على مواصلة السير.

### ثالثاً: العملة [السكّة]:

كانت العملة المتداولة فى بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام، من الفضة (الدرهم). ووفقاً لقول النرشخى، فإن الملك (بخاراً خداه) هو أول من سك عملة من الفضة الخالصة<sup>(٢٩٩)</sup> فى هذه البلاد ثم بدأ تداول هذه النقود بين الناس.

وقد ذكر المستشرق الروسى بارتولد، أن علماء النميات [المسكوكات] قد عثروا على كثير من النقود المتداولة فى آسيا الوسطى قبيل الفتح الإسلامى، فى مدن سمرقند، وخجندة، وخيوه. والعلماء يقسمون هذه النقود إلى قسمين، هما:

### ( أ ) النقود الخوارزمية:

وكانت تحمل على وجهها صورة لرأس ملك وصدرة، ونقش على ظهرها مذبج به النار المقدسة. وعليها كتابة رأى المستشرق (ماركوف): أنها تعنى الحاكم المطلق، بينما قرأها المستشرق (دونر): الملك العادل<sup>(٣٠٠)</sup>.

(٢٩٨) الجاحظ: الحيوان، ج١، ص ١٣٩، ١٤٢، ٢١٣، ٢٧٦، ج٤، ص ٢٧٥ وبراونستون: المرجع السابق، ص ٢٦، ٦٢، ٧٣ وما بعدها.  
(٢٩٩) النرشخى: تاريخ بخارى، ص ٢١-٦١.  
(٣٠٠) بارتولد: تركستان، ص ٣٢٩.

## (ب) النقود الصغدية:

فكانت من أنواع شتى، ولكنها تحمل صورة الملك الساساني بهرام جور [٤٢٠ - ٤٣٨ م]. لذا فإن بارتولد يرجح أن ملك الصغد (بخارا خداه) قد اقتبس شكل العملة من جيرانه الساسانيين<sup>(٣٠١)</sup>. هذا؛ وقد ظلت هذه العملة مستعملة في بلاد ما وراء النهر حتى القرن الثامن الميلادي.



---

(٣٠١) بارتولد: نفس المرجع، ص ٣٣٠.